الصبورة ، التي تشف عن مشاعر صوفية . التعب والارهاق مع الابتسامة . لنأخذ صورا من الطائرات ، نلاحظ ان الاطفال قد اظهروا جوهرها العدائي ، نواياها العدوانية ، فجاءت مرعبة اسطورية !

(1)

« يبدأ الفن بمعناه الدقيق بعملية التحديد ، يبدأ بالطريق القائم بين الغموض والتخطيط الخارجي . ومن المؤكد اننا نجد ان النوع الاول من الفنون تاريخيا — من رجال الكهوف — يبدأ بالخط الخارجي ، فقد بدأ الفن بالرغبة في رسوم خطوط ما ، وما زال يبدأ هذه البداية عند الطفل...»(٤٣).

لقد وجدنا الاطفال الفلسطينيين لا يشذون عن القاعدة العامة ، التي تحكم رسوم الصغار عموما ، ان الخط هو جوهر الرسم عند الاطفال ، يبدأ تحت وطأة تأثيرات بيولوجية ، مشوشا ، عشوائيا ، ثم آليا — موجيا ثم رحويا ، ويصبح اكثر قصدية ، فيتنوع ويتقطع ويتحول الى رموز ، الى ان تكتمل سيطرة الطفل على اصابعه ، ويأخذ الخط طوع ارادة صاحبه فيظهر اكثر وعيا ، اكثر « وظيفية » .

نجد في لوحة « المخيم » ، رسم عنان ، ٦ سنوات، بداية تحول الخط لخدمة فكرة في ذهن الطفل . نجد خطوطا رمزية ، متنوعة ، بدايات تكسر الخط ، مع بقايا شيء من العشوائية . فقد اكتشف الطفل المخيم من خلال كتل بيضوية ، شبه دائرية ، عبر من خلالها عن هيئة الخيم المتراصة . ولانه يعرف اكثر عما تحتويه هذه الكتل — الخيام ، فقد ضمنها كتل بيضوية صغيرة اخرى ، انها سكان الخيم . وتعبر لوحة « كتابة » عن ذات المرحلة ، غير ان المدرسة خلفت له رموزا شكلية لم يكن يعرفها كتابة : ارقام ، احرف ، اشكال فطرية ، غير انه لا يميز فيها سوى طابعها العام — شكلها ، فيكررها ، يصفها الى جانب بعضها البعض افقيا ورأسيا . وبعض « السطور » تضمنت ثمار تفاح مختصرة في شكل دائري ملون ، ثم خط رأسي قصير اعلاها . ثم حروف : ب ، ت . صفوف تضمنت ارقام : ٣،٥ (مقلوبة) . ، ١ ، ٢ ، ١ ، ٣ (مقلوبة) ، ثم حروف ت ، ب ، ثم ثمرتا تفاح . صفوف ثالثة ورابعة تضمنت ارقاما واحرفا واشكالا بشرية في غاية الايجاز والاختزال : شمس ، هلال ، قمر ، عصفور ... الخ .

يكتسب الخط في مرحلة نضج تالية ملامح معينة . خطوط مختصرة ، موجزة، بليغة ، مكتفية بحدودها، تتثنى حينا وتتكسر في حين آخر ، ولكن بخدمة هدف يسيطر على ذهن الطفل . لنرى نموذجا للتعبير الخطي الذي يعطي احساسا بوظيفة الخط في هذه المرحلة ، انه يمتد ويتطاول فوق النموذج الموضوعي — الواقعي بصريا ، ليعني شيئا محددا . ليعبر عن فكره ، مدرك ، احساس ملح . اننا نرى في احدى اللوحات طفلة تقف فوق كرسي اخذ شكلا مختصرا جدا . غير انه ليس موضع شبهة او التباس ، انه كرسي كما لا يمكن ان يكون شيئا آخر . لنلاحظ هنا ان الطفلة متضائلة الحجم ، قصيرة الساقين ، ليس ثمة شعر (ولماذا الشعر هنا ، لا حاجة اليه) ، اما الساعدان فهما طويلان بما يكفي لقطف ثمرة تفاح متدلية . هنا نلاحظ ان الخط يوظف لخدمة غرض محدود . لقد ابرز لنا الرسم اصابع اليد بصورة واضحة، لان لها علاقة بالقطف ، بتناول ثمرة تفاح . وبذلك كان الطفل منسجما مع احساسه بغرض الصورة . فالحاجة الى الساعدين تبرر (المبالغة) في تطويلهما ، كما ان الساقين قد بولغ في تقصيرهما ايضا . لماذا ؟ لان الطفل احس بعجز ساقيه على ايصاله الى ثمرة التفاح ، فيما كان الكرسي يمثل في ذهنه ، اداة الرفع ، العلو .

ثمة صورة ، عبر طفل فيها عن ذعره ، من خلال توحده ضمن مساحة الورقة ثم احاط نفسه بزوابع من الخطوط الرحوية الى درجة خانقة ، فيما تظهر طائرة من بعيد ، تظهر رغم اختزال شكلها ، مصدر خوفه . ولطفل آخر ، عادل ، لوحة تعبر عن ذات الفكرة ، الخوف من الطائرات ، حيث توسط شخصان الصورة ، ثم احاطهما بالخطوط التي اتصلت بطوق شبه دائري من الخطوط يحيط بهما . لقد وجدنا ان هذا الطوق من الخطوط قد نقل احساسه بحركة الطائرات ، وبقدرتها على المحاصرة .

وتقدم الطفلة جليلة (١١ سنة) نموذجا عن احساسها الغريزي بقدرة الخط على تشكيل كتلة بصورة حيوية . الخط في لوحتها ، نموذج لاحساس الطفل بقيمة الخط في اداء وظيفة ما . نلاحظ مثلا امتداد الخط ، انحناءه ، ثم تكسره في نقاط معينة ، معبرة بذلك عن كتلة صلبة بارزة ، مثيرة للفضول ، دون ادنى حد من التلوين ، ثم نلاحظ تقاطع الخطوط ودخولها في صلب الشكل ، مكسبة